جنـــاية أحمد أمين
على الأدب العربي
للدكتور زكي مبارك

— ١٧ —

أراد صاحبنا أن يقسّم الأدب إلى قسمين : أدب تركيبيّ وأدب تحليليّ ، ثم بنى على هذا التقسيم أحكاماً خواطئ ، كعادته في كل ما يتناول من الشؤون الأدبية

وإلا فمن الذي يصدق أن التشبيهات تُعاب بحجة أنها صور تركيبية ، وبحجة أن الأمم لا تهتم بالتشبيهات إلا في حالتها الفطرية؟

إن أحمد أمين أفرط في تحقير التشبيه أقبح إفراط ، ونسي أنه عمليةٌ ذهنية تشهد بقوة الذكاء ، ودقة الملاحظة ، والقدرة على ضمّ الصور بعضها إلى بعض

ولو جارينا أحمد أمين في أحكامه الجائرة لأغضينا عن جمال التصوير في قول ابن المعتز :

لا مثلَ منزلة الدويرة منزلٌ ... يا دار جادكِ وابلٌ وسقاكِ
بؤساً لدهرٍ غيرتك صروفهُ ... لم يمح من قلبي الهوى ومحاكِ
لم يحلُ للعينين بعدك منظرٌ ... ذُمّ المنازلُ كلُّهن سواكِ
أي المعاهد منك أندب طِيبهُ ... ممساكِ بالآصال أم مغداكِ
أم بَرد ظلك ذي الغصون وذي الجَنى
أم أرضــــك الميثاء أم رَيّاكِ
فكأنما سُمِطتْ بجامر عنبر ... أو فُتّ فار المسك فوق ثراكِ
وكأنما حصباء أرضك جوهرٌ ... وكأن ماء الورد دمع ندّاكِ
وكأنما أيدي الربيع ضحيّةً ... نشرتْ ثياب الوشي فوق رُباكِ
وكأن درعاً مُفرغاً من فضة ... ماء الغدير جَرَتْ عليه صَباكِ

وقد أشرنا من قبل إلى أن أحمد أمين يرى التشابيه ضرباً من الألاعيب ، وليس من الكثير عليه أن يرى ذلك فقد رأيتم فيما سلف وسترون فيما بعد أن للرجل طريقة في الفهم تخالف طريقة أهل الأدب

وأدعم هذا الهجوم بالشاهد الآتي لتسقط حجة من يدّعون أننا نظلمه ونتناسى مكانته الأدبية

قال أحمد أمين إن الأدب العربي جنح إلى التركيب وغفل عن التحليل ، وكان دليل ذلك عنده « أن علماء البلاغة العربية عُنُوا بالإيجاز أكثر من عنايتهم بالإطناب ، وأعجبوا بجوامع الكلم أكثر من إعجابهم بالكلام الطويل البسيط ، بل إن بعضهم كأبي هلال العسكري فهم أن الإطناب تكرار المعاني وطول الألفاظ ، وقال : « إن كتب الفتوح وما يجري مجراها مما يقرأ على عوامّ الناس ينبغي أن تكون مطوّلة مُطنباً فيها » فكأنه يريد أن يجعل الإطناب أدب العامة ، والإيجاز أدب الخاصة »

ذلك كلام أحمد أمين ، وهو يدل على أنه لم يفهم كلام أبي هلال وإليكم البيان :

إن كلام أبي هلال معناه أن الكلام له مقامات ، فإن خاطبت رجلاً ذكياً فأوجز : لأن الإطناب في مخاطبة الأذكياء يعدّ من التطويل وهو فضول ، وإن خاطبت الجمهور فأطنب : لأن الجمهور مكوّن من عناصر كثيرة تتفاوت في الفهم والتمييز والإدراك ، والحزم يوجب أن نطنب حين نخاطب الجماهير لنصل إلى إفهامهم ما نقصد إليه من المعاني والأغراض

ذلك معنى كلام أبي هلال، فهو لا يريد أن يقول بأن الأدب يكون أدب خاصة عند الإيجاز وأدب عامة عند الإطناب ، وإنما يريد أن يحدد واجب الشاعر والكاتب والخطيب ، ودليل ذلك أن علماء البلاغة مجمعون على أن الإيجاز في مخاطبة العامة خطأ ، والإطناب في مخاطبة الخاصة ضياع

وعلى ذلك يكون شرف البيان موقوفاً على فهم مقتضيات الأحوال ، فالأديب الذي يوجز حين يخاطب الخاصة ليس أعلى منزلة من الأديب الذي يطنب حين يخاطب العامة ، كما يتوهم أحمد أمين الذي يكيل الحقائق الأدبية بأوسع المكاييل ، مع أنها لا توزن إلا بأدق الموازين

فمن أين فهم أحمد أمين أن الإطناب يراه العرب من

المبتذلات حتى يحكم بزهدهم فى الأدب التحليلىّ الذى يستوفى عناصر الموضوعات ؟

* * *

وعاب أحمد أمين على العرب أن يهتموا بجمع الحكم والأمثال وعدّ ذلك نتيجة حتمية للأدب التركيبىّ ، ولو كان أحمد أمين من المطلعين على الآداب الأجنبية لعرف أن الاهتمام بجمع الحكم والأمثال هو من الأغراض التى يهتم بها أكثر الشعوب . ويقول أحمد أمين إن « الخطب والكتب فى كثير من الأحيان عبارة عن جمل قصيرة مركزة محكمة ، كالذى نلاحظه فى كتاب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء وخطبة زياد وخطبة الحجاج ، ولو تناول الأدب التحليلى كل جملة من هذه الجمل لصاغ منها صفحات »

فهل يدرك الأستاذ أحمد أمين وجوه الخطأ فى كلامه هذا ؟

إن خطاب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى من أنفس الخطابات فى تحديد أصول القضاء ، فهل كنت تنتظر أن يؤلف عمر بن الخطاب كتاباً فى مجلد أو مجلدين يشرح فيهما لأبى موسى فروع القضاء ؟

وما الذى تعيب على خطبة زياد وخطبة الحجاج ؟

أتعيب عليهما الإيجاز ؟ وما الموجب للاطناب وقد وقعت الخطبتان على رءوس من سمعوها وقوع الصواعق ، وظلتا حديث الناس من جيل إلى جيل ؟

ما رأيك فى المستر تشمبرلن وقد ألقى خطبتين وجه إحداهما إلى مواطنيه الإنجليز ، ووجه الثانية إلى أعدائه الألمان ؟

ألا ترى أن هاتين الخطبتين أوجز من خطبتى زياد والحجاج ؟

هما أوجز بلا جدال

فهل سمعت أن ناقداً أدبيا فى فرنسا أو انجلترا عاب على المستر تشمبرلن أنه أوجز ولم يطنب ؟ هل سمعت ؟ هل سمعت ؟

وا أسفاه !!

إن المستر تشمبرلن حوله أمة تفهم أقدار الرجال ، فقد أعلن الإنجليز عطفهم عليه حين رأوه يبكى جهوده الضائعة فى الدعوة إلى السلام

وكان العرب أمة تفهم أقدار الرجال إلى عهد الحجاج : فقد كان مالك بن دينار يظهر عطفه على الحجاج كما أعلن الإنجليز عطفهم على تشمبرلن . كان مالك بن دينار يقول : ما سمعت الحجاج يشكو أهل العراق إلا رحمته منهم !

إن أحمد أمين يقول إن كل جملة من كتاب عمر بن الخطاب وخطبة زياد وخطبة الحجاج يصاغ منها عند التحليل صفحات ، ويعد ذلك شاهداً على ميل العرب إلى الأدب التحليلى ، فما الذى يقوله أحمد أمين فى خطاب تشمبرلن إلى الألمان ؟

إن خطاب تشمبرلن قد يصاغ منه عند التحليل مجلدات لا صفحات ، ومع ذلك لم يقل أحد بأن هذا الخطاب شاهد على على أن الإنجليز لا يحسنون تحليل المعانى والأغراض

إن المستر تشمبرلن يفهم ما كان يفهمه زياد والحجاج

هو يفهم أن الجمل القصيرة المركّزة المحكمة هى التى تبقى فى الأذهان والقلوب ، ويدرك أن التهديد الذى يصبّه الخطيب فى جملة أو جملتين ، والسخرية التى يصوغها فى كلمة أو كلمتين ، أبقى أثراً من الكلام المطول المبسوط الذى يصاغ فى صفحات

أيعرف أحمد أمين ما الذى سطره الفرنسيون على مدخل الپانثيون ؟

سطروا هذه العبارة الموجزة : Vaincre ou mourir

وهى عبارة تُشرَح فى مجلدات لا صفحات

أيعرف أحمد أمين الجملة المسطورة على باب قصر التين ؟

هى الجملة القليلة الألفاظ الكثيرة المعانى ، الجملة التى تقول :

« العدل أساس الملك »

وهى أنفع من ألف كتاب فى شرح مزايا العدل وأثره فى حياطة الملك

أيذكر أحمد أمين الآية المكتوبة فى جميع المحاكم المصرية فوق منصة القضاء ؟

هى كلمة القرآن المجيد :

« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »

فهل يعدّ ذلك الإيجاز من الخطأ ؟ أم يراه غاية فى تذكير الناس بأصول الحقائق ؟

يجب أن يعرف الأستاذ أحمد أمين أن العرب لم يستهينوا بالأطناب ولم يعدّوه من المبتذلات حتى يحكم بأنهم يرونه من أدب العوامّ لا أدب الخواصّ . فالإطناب أسلوب من البيان يقصد إليه الشاعر والكاتب والخطيب حين يدعو المقام إليه ، وهو أسلوب شريف لم يحتقره أحد من أهل البلاغة كما توهم أحمد أمين

وهل كانت سائر الكتب على نمط كتاب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى ؟

أين هو من الكتب المطولة التى كان يبعث بها علىّ بن أبى طالب إلى عماله فى الأقاليم البعيدة والأقطار القصية [1] ؟ وأين هو من كتب العهود التى صارت بعد ذلك من تقاليد الحكومة الإسلامية؟

وهل كانت سائر الخطب كخطبة زياد وخطبة الحجاج ؟

أين هو من الخطباء المطنبين الذى تحدث عنهم الجاحظ فى البيان والتبيين ؟

أين خطب سحبان الذى كان يهدر بها من الظهر إلى الأصيل؟

أين أحاديث صعصعة بن صوحان ؟

أين مشاورة المهدى لأهل بيته ، وهى من أنفس الذخائر الأدبية ؟

وتحدث أحمد أمين عن الإيجاز الذى التزمه مؤرخو العرب فى كتب التراجم وعده من عيوب السليقة العربية ، فهل كان ينتظر أن تصاغ تلك التراجم على نحو ما تصنع اليوم ، وعلى نحو ما يصنع الأوربيون ؟

كان هذا ممكناً لو أن المؤرخ العربى كان يقصر جهده على الترجمة لرجلين أوعشرة رجال ، ولكن هذا كان من المستحيل على من يترجمون لمئات أو ألوف

وما الذى قرأ أحمد أمين من كتب التراجم ؟

هل عرف كتب الطبقات : طبقات النحويين واللغويين والفقهاء والصوفية ؟

إن كان عرف تلك الكتب فليحدثنى كيف كان يمكن لرجل مثل السبكى أن يصنع أكثر مما صنع فى طبقات الشافعية ؟ وليحدثنى كيف كان يمكن لأبى الفرج أن يصنع أكثر مما صنع فى كتاب الأغانى ؟ وليحدثنى كيف كان يمكن لياقوت أن يصنع أكثر مما صنع فى كتاب إرشاد الأريب ؟ وليحدثنى كيف كان يمكن للمقرى أن يصنع أكثر مما صنع فى نفح الطيب ؟

لو أن هؤلاء الرجال ترجموا للشعراء والكتاب والخطباء والمؤلفين على نحو ما نصنع اليوم لأضاعوا علينا فرصاً لاتعود أبد الدهر ، لأنه كان يستحيل عليهم أن يحدثونا عن جميع تلك الطوائف ، وكانت همهم ستقف عند الترجمة لعدد قليل من أصحاب المواهب فى الأقطار العربية والإسلامية

فما الذى يستفيد أحمد أمين حين يغض من أقدار أولئك الرجال ، وهو من فضلاتهم يعيش ؟

هل يعرف كم ألوفاً من الأدباء والمؤرخين انتفعوا بجهود مؤلف الأغانى ؟

هل يعرف أن ابن خلكان الذى احتقره وازدراه أدى مهمة يعجز عنها الأكثرون ؟

إن أحمد أمين يعيش فى عصر المطبعة ، والسُّبل أمامه ممهّدة لنشر ما يشاء ، فما الذى صنع ، وما الذى صنع زملاؤه فى الترجمة لأعلام العصر الحديث ؟

ليت دنيانا الحاضرة تعرف رجلاً مثل ياقوت يترجم لأقطاب الفكر والبيان فى مصر والمغرب واليمن والحجاز والشام والعراق !

ليت ثم ليت ! فأحمد أمين نفسه لا يعرف شيئاً من التيارات الفكرية فى البلاد العربية والإسلامية لهذا العهد ، وهو محتاج إلى ثعالبىّ جديد يعرّف الناس بفضلاء عصره كما صنع أبو منصور حين ترجم لأقطاب القرن الرابع

فما هذه القطرسة على أسلافكم يا أدباء آخر الزمان ؟

وبأى حق تتجنون على رجال أدّوا واجبهم أحسن أداء وهم فى قلّة من أسباب الرزق ؟

إن أحمد أمين لم ير بلداً غير مصر إلا وهو مكفىّ المؤونة

---

(١) قد يقال إن كتب على بن أبي طالب وعهوده إلى عماله قد تطرق الشك فى نسبتها إليه ، ونقول إنها تدل على تصور العرب لما كان يصدر عن الخلفاء من كتب وعهود ، فهى على فرض وضعها تؤيد حجتنا

بأموال الحكومة المصرية ... فهل يعرف كيف كان يصنع رجل مثل ياقوت وهو يطوّف بالغرب والشرق وعلى ظهره حقيبة يحمل فيها ما يتّجر به ليعيش ؟

وأبو هلال الذى يستشهد أحمد أمين بكلامه فى الإيجاز والإطناب ؟

أبو هلال هذا لم يعرف سهولة العيش التى عرفها أحمد أمين ، فقد قست عليه الأقدار حتى اضطرته ، وهو من نوابغ الأدباء والمؤلفين إلى كسب قوته من مزاولة التجارة بالأسواق ، وهو الذى يقول :

جلوسى فى سوق أبيع وأشترى دليلٌ على أن الأنام قُرودُ

ولو اضطُر أحمد أمين — لا قدّر الله ولا سمح — إلى كسب رزقه من مزاولة التجارة فى الأسواق لنضب معين فكره وشُغل عن مضغ الكلام فى أدب المدة وأدب الروح ... !

أحبُّ أن أعرف ما هى الغاية من تحقير ماضى الأمة العربية ؟

أحب أن أعرف لأى غرض شغل أحمد أمين نفسه بالنص على أن عبد الحميد الكاتب فارسىّ الأصل ؟

هل يريد القول بأن الأدب التحليلىّ وصل إلى العرب من أدباء ليسوا من الأرومة العربية ؟

وهو كذلك !

ولكن ما رأيك إذا حدثتك بأن الحضارة العربية هى صاحبة الفضل على عبد الحميد وابن المقفع وسائر من نبغوا فى الممالك الإسلامية وهم من أصول أجنبية ؟

إنك تعرف أن أعظم ما بقى من آثار ابن المقفع هو الحكم المبثوثة فى الأدب الصغير والأدب الكبير ، وهى حِكم يغلب عليها الإيجاز ، فهل تعدُّ الإيجاز من عيوب تلك الحكم الخوالد بحجة أن الإيجاز من خصائص البلاغة العربية ؟

إتق الله فى نفسك ، أيها الصديق ، فللناس أذواق وعقول

وتقول إنك لا تعرف فى العربية غير شاعر واحد هو ابن الرومى وكاتب واحد هو ابن خلدون ... وسترى فى الأسبوع المقبل كيف نلتقى فى تحرير هذا الموضوع الدقيق .

« المحدب شجون »

زكى مبارك

هل آن للأزهر أن يبعث ؟

للأستاذ محمد يوسف موسى

تصفحت بعض أعداد الرسالة الغراء التى صدرت وأنا بفرنسا صيف هذا العام ، فرأيت فى أحدها كلمة عن إهابة الأستاذ الكاتب على الطنطاوى بعلماء الأزهر لمساعدته فى تأليف كتاب عن الدين الإسلامى ، يفيد منه العامة والخاصة والعرب والعجم والمسلم وغير المسلم ، وأن هذا الاستنجاد لم يجد له سميعاً فضاع صرخة فى واد كما يقولون

ليطمئن الأستاذ نفسه فليس إلى بلوغ ما يريد من سبيل إلا إذا اعتمد على نفسه وأمثاله من الكتاب الذين يلذ لهم أن يقفوا بعض جهودهم على الدين ونشره ، ويجدون التعب فى ذلك عذباً جميلاً . أقول ذلك وأنا واثق مما أقول ؛ فقد دعوت فى أوائل هذا العام المنصرم إلى مثل ما يدعو إليه الآن فما وجدت غير التثبيط وأمثال هذه الكلمات : خَلِّ عنك ، الله قد وعد بأنه سيظهر الإسلام على الدين كله ، وهو ليس فى حاجة إلى مثل جهودك وجهودنا ! وإلى القراء الأمر على جليته :

نزلت فى صيف العام الماضى بفرنسا بعائلة محترمة بمدينة « ليون » ، وتأصلت بينى وبينها الروابط لتقارب فى العاطفة وتشابه فى الميول . ولأنها عائلة محافظة ، أعجبها منى قيامى ببعض ما يجب علىّ لله من الصلاة وتلاوة القرآن ؛ فكانت أحاديثنا فى أوقات الفراغ تدور كثيراً على الإسلام وما فيه من آداب عامة ، وشرائع فى مختلف مناحى الحياة تصلح للناس جميعاً . وبلغ بهم الأمر أن كانوا يطلبون منى تفسير بعض الآيات التى تشتمل على تلك الآداب والتشريعات ، والآيات التى تضمنت أخبار عيسى عليه السلام وأمه العذراء .

وبديهى أن ذلك كان يسرنى ، وكنت أعمل على تحقيقه جهدى . ثم بدا لى فأعطيتهم القرآن مترجماً للفرنسية ترجمة مناسبة تقريباً .